راضي مهدي السعيد

الرحيل عن مدن الهزيمة

لانيّ أغنيّ وأحمل قيثارتي فوق صدري الجريح نبيّا تسدّ محاريبه أعين الليل والبشر الضائعين غريب انا وغريب نداتي وسفري معطّله كل احرفه ، عربيّ أنا . كان سيمي تباركه الارض ، تمنحه قبلة ، ترضع الشمس من غمده ، تشرب الريح ظامئة صوته . يا دمي أنت لي شاهد . بعد ما عزّ في زمن البوح بالماء واللهب المطفأ الجمرات الشهود النفيون والانبياء .

* * *

رأيت المواكب قادمه ، فلت : ها ان عرسي قريب وان الهلاهل آتية والمواعيد قد فتحت كل ابوابها . لم تعد واحتي ساحة للدروب الشتائية القاع ، للعتبات المسمّرة الظل ، للاذرع المستريحة فوق المسانـد ، للأعين المشرئبة من غير نار ، لكل الخطى المتعبة .

وفي واحتي كان بيتي وكل بيوت الرجال الصريعة ايامهم ، كان نهري المحاصر شاطئه ، كان حتى مُصلاّي مطفأة ريحه والمواويل منذورة للبكاء وللخيل كان ارتعاش وللشمس كان انطفاء

وكنا نقول لاطفالنا ولاسوارنا : اننا نملك العزم والكبرياء

وسرعان ما ننطوي خجلا حين تصرخ اعماقنا: انتم ، أنتم ...

ثم تطعن كل حكاياتنا قهقهات النساء

تعرّيت أنت ، تعرّى نداؤك ، حاصرك الصمت ، لم تتقد شفة ، لم تعانق خطى العصر ، لم تتنفس هواء البحار الجديدة ، لم تحترق مفرقا ، لم تشق العباءات . أنت المسافر بالحلم المتوزع ، أنت المعذّب بالعشق ، بالكلمات الحبيسة ، بالاحرف المسترقة ، بالوهج المتعطش للماء . هل يمنح السفر المرّ زاد العبور لمرتحل لا ترى الشمس عيناه أو تبصر القمم النائية ؟

لأنت البعيد الذي يحتمي بالظلال المهجّرة الظاميه ويولد في ساحة يزرع الليل احداقها انجما خابيه ونهرا من الرمل كان الطريق الى عالم يهب النور للمدن الغافيه .

يقولون : زاد المنى ليس مرّا . وأنت تجرعته علقما ، أطعمتك الليالي العقيمة اكؤسه تمرا نسغه كان ملح الجراح التي انبتتها الحرائق . يا شفة عبّت الماء انهار رمل مدائنه اغلقت كل ابوابها في وجوه الرجال المطلين من شرفات السماء .

فما أقتل العطش المتبرعم واحات موت بأرض سقاها دم الانبياء !.

فهل أنت من زمن جاء يرحل من عير زاد . ومن غير سفر بهذا الطريق الذي تمهر الشمس جبهته بالصياء ؟.

* * *

لك اليوم ان تلتفي بالمسافات مبتهلا مثلما يلتقي طائر بالينابيع عبر الصحاري ، يعانقها . يغسل الجرح ، ينفض عنه الغبار المجمّع ، ينزع اثوابه السود . يمسح عينيه ، يفتحها للشعاع الذي يمنح العصر اجنحه لا تخاف الرياح .

لك اليوم ان ترتدي الشوق والحلم المتفجّر أنهار صحو وشاح

فأنت ببغداد تولد ، بغداد هذي التي لم تزل باحة للشروق ومئذنة للصباح ، وكل الذي فيك يمتدّ ، يعبر ، يخضرّ ، يرسم في الارض اشرعه لونها الفرح المتوهج فوق الشعاه النبيّة والاوجه العربيه والخطوات التي من رُباها يندّ السماح .

هنا . أنت مجمره ، غابة من لهيب تحدّر يكتسح الماء ، يأكل كل الجذور الغريبة . قل للرمال الندية : لا تشربي رغوة الطين او تمضغي ليس الشوك اذ ربما كنت أنت البقية من عالم فيه احيا نقيا . أنا أنت . مهما تكن شفتي ، لغتي ، احرفي ، شهقتي في المجامر . بي كل ما في الطيور المهاجرة الصوت لا تنكريني ولا تنكري مولدي . انني أولد اليوم ثانية . هاك تاريخ مجمرتي فهي ليست ترابا ولا موقدا للرماد .

هبي انني كلما نفثني الصمت أعشق طعم الهواء الذي لا تزاحمه زاحفات الجراد فاني قد اجتزت اسوار كل الحرائق واخترق اللهب المتحدّر اوردتي والتظي عطشي فأنا عبد هذا المداد

وليل المحابر ساقيتي . هل تجف المحابر في زمن فيه للجرح ألف اخضرار وألف اتقاد ؟

لقد أطعم الزهر حتى الحصى واكتسى النبع ، اردية الطين واحتضن الربوات الظماء القتاد .

* * *

مررت على مدن الامس أسألها عن محاريبها ، عن خطى صنّعت عمرها في المدار القصيّ ، انزوت خلف مدرجة الليل ، القت تواريخها في تراب التساقط ، نامت خيولا بكتها قوائمها . انها تأكل الجوع لابدة في الرمال التي احترقت كل ذرّاتها في عيون المطيفين بالشمس عبر المدى واختراق الحدود التي في مهبّاتها اعتمرت جبهتي ، زفرفت كل اجنحتي ، فالليالي مدار وساحاتها مرفأ للقوافل

والعابرين الجسور الكبيرة . هذا مطاف الحشود المقيمة في الارض يا اذرعا ملكت عصرها والتقت بخطاها الدروب .

انا أنت هذي البحار التي كل يوم تصلّي، ترى الله في مهبط الشوق ، تحملهاحرفا سفرها عالم موغل في شعاب الحرائق ، انجمه ترتقي زمنا لا تشيخ الهياكل فيقاعه او تغيب الرؤى . انت مسرجه ، يوقد السرّ في نارها ، يوقظ الصحو . يا صحوات المحاجر في كل غابي استردي دماء على الارض ما برحت تملك الاختيار

هو البحر اشرعة من عيون ونار
فلا تركبيه اغترابا ولا تسكنيه انتظار

فما كان يوما لمرتقبموعدا او لمرتحل دون زاد مقبلا ودار .

***

على الف سارية صلّت الريح ، رفّ السني ، أزهر القمر المرتدي ثوبه الازليّ ، اعتلى صهوة الشمس راس تفنيّ بما كان يملك ، يحمل ،يعشق، يحلم ، يرسم للقادمين الطريق الذي لا تضيع المسافات فيخطوه او تموت النداءات . ان النداء الاخير ابتداء وصوت ابتهال على شفة جرحها يمنح البشر الضائعين الصدى الحر في عالم يحمل الانتماء

من العار ان تستطيب البكاء
وانت هنا واقف بين كل الحشود التي ترفض الانحناء

فليست خيولا مطهّمة هذه الاذرع المشرئبة اعناقها لدروب السماء
اذا هبّت الريح عاصفة او تعالت مزمجرة كل ساحاتها تعشق الارتماء

***

هي النار تصهرنا ، تنتقينا، تنفضنا ، تلدالجرح في دمنا لاهبا ، تنزع الوهم منا ، تعرّي خطانا ، تعلمنا كيف نحيا ، نصلّي لاشواقنا ، نتغنّى بتاريخنا نسترد النداء الذي نهبته الليالي ، نبارك عصرا تعانقه الشمس ، تعبره ساحة لا تظلّل من يعلكون السنين ومن يمضغون الرماد ويحتطبون الاسى في شعاب الزمان .

***

منكّسة كل هاماتكم أيها المستريحون في مدن الصمت والشاربون تراب الهوان .

***

هنا وطن انت عانقته ،انت اسرجت قنديله ،انت قبّلت اعتابه . لا تقل : هانمن بعد ما شبّ فيه الحريق الكبير ، انحنى للخيول المغيرة، اسلم مقوده للأكفّ الغريقة فيالماء ، في الطين ،في حنوات الهزيمة ، في معبر الشاطيء المستباح المرافيء .انت ابنه ، دمه ، صوته ، ثاره ، غده الاخضر المنتمي للجراح

فمن بين معترك النار ينتفض الجمر ، يعلو الصياح وينطفيء الليل منهزما عبر اسواره ويطل الصباح.

لكل الذين استبيحت منازلهم صيحة يعرف المكتوون احتراقاتها ، يشهد العصر مأساتها ، تلمس النار رعشتها ، ترهب الجبهات العقيمة يوم انتفاضتها واحتشاد اللظى في معاصمها ، في خطاها التي ما استحالت مجامر للصمت او بركا غارفيها الضياء

لكل المجيلين أحداقهم في الصحاري ينابيع ماء
لكل المذيبين انفاسهم عطشا في دروب المنافيارتواء
فيا مدني لا تكوني مدار انتهاء
ولا توصدي كل باب غدا يلتقي بالمسافات ،بالزمن المتخطّي ، بما يجعل الارض ساقية تشرب الاعين المستلذّة طعم الدماء .

***

انا أنت يا وطني ، يا نداء يؤرقني ،يا عيونا تطاعنني كل يوم على صيحة واحتراق وشيء يمزّق مني الحنايا انا ابن العراق المطلة اعدابه وابنارض الشآم، ابن سيناء والنيل ، وابن الجزيرة والقيروان ، ابن صنعاء ، وهران والقمم الخضر ، وابن الخليج الذي شربت من ينابيعه كل ابناء قافلتي منذ ألف والف . أنا أنت يا وطني هاك وجهي فوجهي مرايا لكل الوجوه النقية . انيّ اغنيّ ولو ازهر الشوك في شفتي ، حيث ما زلت في واحتي طائرا عاشقا للينابيع . يا وطني أنت علمتني ان أغنّي وان احمل الشوق .من قال يا وطني : انني أطعم الخوف . يا وطني مذ عرفتك لم أعرف الخوف ، لم اتفصّد عروقا ولم انوزّع خطى ، لم أكن عابرا جاء يطلب زادا يواصل فيه الطريق ، يلملم اشتاته ، يرتوي من ينابيع هذا الضحى ثم ينسلّ قبل ارتعاش الجفون وقبل اشتداد الرياح

انا أنت يا وطني لا تدعني سليب الخطى والجناح
ولدت وبي بعض ما فيك من خضرة . ان في خضرة الارضاسفار صحو والوية ودروبانفتاح.

***

لانيّ اغنّي واحمل قيثارتيفوق صدري الجريح نبيًا تسدّ محاريبه أعين الليل والبشر الضائعين غريب انا وغريب ندائي وسفري معطلّة ،كلاحرفه. لن تعطل أحرف من يملكون النداء ومن يحملون القيثار فوق الصدور الجريحة . يا وطني آن ان تستحيل الصدور الجريحة والاحرف النازفات حرائق لاتعرف الانطفاء .

***

الا أيها الوطن المستباحة شطآنه والضفاف التي تلد الواهبين رحيلا عن المدن اللابسات ثياب الهزيمة والاوجه الشاربات الجراح الكبيرة أقداح رمل مهيل واكواب طين .